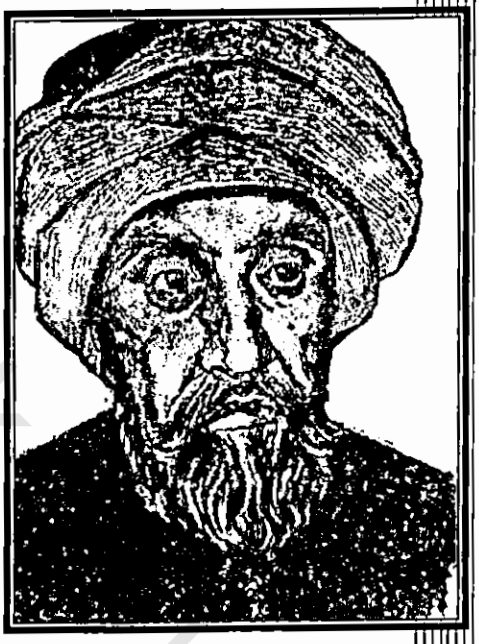

الإمـــام جعفـــر الصـــادق

(٨٠-١٤٨هـ=٦٩٩-٧٦٧م)

رفض أن يكون خليفة

obeikan.com

في أحلك لحظات التاريخ وأشدها ظلمة، كان علماء الدين هم شعاع النور والهداية وصوت الحق والعدل، الذي يبشر للظلومين والصابرين، أن الفجر آت، وأن دولة الظلم ساعة ودولة العدل والحق إلى قيام الساعة.

كلما قسّا الحكام وتجبروا وصرفوا الناس عن جادة الطريق، كلما ازداد علماء الدين الحقيقيون تمسكا بالشريعة، وتفانوا في هداية الناس والعودة بهم إلى رحاب الله والزود عن دينه.

من هؤلاء العلماء عالم ترك ثروة من الفقه والعلم والتأملات، وأنشأ في الحياة الفكرية تياراً جديداً خصباً أعلى فيه العقل والنظر والتأمل والعلم وجمع المعارف كلها وعلوم الدنيا والدين، ودافع عن حرية الإرادة وحرية الرأي التي هي أساس قدرة الإنسان على تنفيذ أمر الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان جسوراً في الدفاع عن الحق وقوياً على الباطل.

هو الإمام «جعفر الصادق» الذي رفض الخلافة وتفرغ للعلم ودعوة الناس إلى الحق.

حب بالإجماع:

لم يجتمع الناس على حب أحد في ذلك العصر نهاية الدولة الأموية وصدر الخلافة العباسية - كما أجمعوا على حب الإمام «جعفر بن محمد» الذي عُرف باسم «جعفر الصادق». ذلك لأنه كان صادق النفس، و سع الأفق مرهف الحس، متوقد الذهن كبير القلب، يلتمس في غضبه الأعذار للآخرين، حاد البصيرة، ضاحك السن، مضيء القسمات، عذب الحديث حلو المعشر، سباقا إلى الخير باراً طاهراً، وكان صادق الوعد وكان تقياً.

هو من العترة الطاهرة، عترة رسول الله ﷺ جده لأمه هو أبو بكر الصديق، وجده لأبيه هو الإمام علي بن أبي طالب. ولد في المدينة سنة ٨٠هـ، ومات فيها سنة ١٤٨هـ.

كان مع جلال هذا الحسب متواضعا لله، وعى منذ طفولته نصيحة أبيه «الإمام محمد الباقر»: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله.

إظهار المسكوت عنه:

تعهده وهو صغير جده لأمه «القاسم بن محمد بن أبي بكر»، بقدر ما تعهده جده لأبيه «علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبى طالب»، فإذا به وهو صبي يحفظ القرآن ويتقن تفسيره، ويحفظ الحديث ويفهمه. مما أتاح له أن يكشف ما وضعه المزيفون تزلفا للحاكمين، أو خدمة هذا الطرف أو ذاك من أطراف الصراع السياسي، وعمل على نشر الأحاديث التي حاول الحكام المستبدون إخفاءها، فقد حاول ذلك الزمان إخفاء ما رواه علي بن أبى طالب من السنة.

كان عصره متوترا مشوبا بالمآسي، تخضب الرايات المنتصرة فيه دماء الشهداء من آل البيت، ويطغى الأنين الفاجع علي عربدة الحكام، فمنذ استشهاد الإمام الحسين ابن علي في كربلاء والدولة الأموية تضطهد آل البيت وتضطهد أنصارهم، وتخشى أن ينهض واحد منهم لينتزع الخلافة.

وبعد استشهاد عمه «زيد» كان الإمام جعفر هو الذي تتطلع إليه الأنظار، لذلك كانت تحوم حوله عيون الأمويين وأرصادهم.

وكان الإمام جعفر منذ أن رأى بطش الأمويين بآل البيت وأنصارهم وبالباحثين عن الحقيقة وبمقاومي الاستبداد،كان قد أخذ بمبدأ التقية، فلم يجهر بالعداء لبني أمية اتقاء لشرهم، وحذر الفتنة، وهم إذ ذاك غلاظ شداد على من لا يوالونهم.

حقن دماء المسلمين:

فآثر أن يهب نفسه للعلم، وألا يفكر في النهوض والانقضاض على السلطان الجائر حقناً لدماء المسلمين، وإن خير ما يقاوم به البغي هو الكلمة المضيئة التى تنير للناس طريق الهداية وتزكيهم وتحركهم إلى الدفاع عن حقوق الإنسان التي شرعها الإسلام، وإلى حماية مصالح الأمة التي هي هدف الشريعة، وكان قد تعلم من جده

«الإمام علي زين العابدين بن الحسين» عن جده الرسول ﷺ أن طلب العلم ونشره جهاد في سبيل الله، وأن الله تعالى جعل للعلماء مكانة بين الأنبياء والشهداء.

كان يسير على هدى نصائح أبيه «محمد الباقر» الذي مات وابنه جعفر في الخامسة والثلاثين، فقد كان يقول له: «إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل شر، فإنك إن كسلت لم تؤد حقاً، وإن ضجرت لم تصبر على حق، طلب العلم مع أداء الفرائض خير من الزهد، إذا صاحب العالم الأغنياء فهو صاحب دنيا، وإذا لزم السلطان من غير ضرورة فهو لص». كما أوصاه ألا يصحب خمسة ولا يحادثهم ولا يرافقهم في طريق: الفاسق والبخيل والكاذب والأحمق وقاطع الرحم. لأن الفاسق يبيعه بأدنى متعة، والبخيل يقطع المال حين الحاجة، والكذاب كالسراب يبعد القريب ويقرب البعيد، والأحمق يريد أن ينفع فيضر، وقاطع الرحم ملعون في كتاب الله.

هداه عكوفه على دراسة القرآن والحديث إلى أن واجب المسلم أن يؤمن عن اقتناع وتدبر وتفكر في ظواهر الحياة والكون،فهي دليله إلى الإيمان بوحدانية الله. وهداه هذا التفكير إلى الاهتمام بعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والنبات والأدوية لأنها علوم تحقق مصالح الناس، وتحرر الفكر وتهديه إلى الإيمان العميق الحق الراسخ، وتتلمذ عليه جابر بن حيان، وتعهده وحثه على دراسة علوم الحياة، وزوده بمعمل وأمره أن ييسر كتاباته لينتفع بها الناس، وكان يتدارس معه علوم الطبيعة والكيمياء والطب، وكشف له من تبصره بالفقه كثيرا من المعارف العلمية، وهداه بالمعارف العلمية إلى التمكن من الفقه.

الحكمة والموعظة الحسنة:

وعلم وهو في المدينة أن في العراق مذاهب تدعو إلى الإلحاد والزندقة فخرج يناقش زعماء هذا المذهب، لم يقصد مكتفياً بالحكم عليهم بالكفر، أو يصب اللعنات عليهم، بل ناقشهم بمنطقهم، ليثبت لهم وجود الله، وقادهم مما يعلمون إلى ما لا يعلمون.

عاش الإمام جعفر يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فأقنع كثيراً من الزنادقة والملحدين والمفكرين والوثنيين بالإسلام فأسلموا وحسُن إسلامهم، أضافوا بفكرهم ثراء إلى الفقه وإلى العلوم في ذلك العصر.

ولكم أساء إليه بعض صنائع الحكام الذين خشوا التفاف الناس حوله، فما قابل الإساءة إلا بالإحسان وهو يردد قول الله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت:٣٤]، كان يزدري الانتقام ويعلم الناس فضيلة العفو، مرددا قول رسول الله ﷺ: «**ما زاد عبد بالعفو إلا عزا**».

وكان بعض المنتسبين إلى الفقه والثقافة وعلوم الدين قد صانعوا حكام بني أمية وزينوا لهم الاستبداد وأفتوا لهم بأنهم ظل الله في الأرض، وأنهم لا يسألون عما يفعلون.

وكان الأمويون يحسنون مكافأة هؤلاء المتملقين، فيجذلون لهم العطاء ويولون بعضهم، وكان بعض هؤلاء الولاة يحب أن يبدو فقيهاً عالماً على الرغم من جهله المركب، وقد تعود أحد هؤلاء المرتزقة المنافقين أن يتقرب إلى الخليفة الأموي بلعن الإمام «علي بن أبي طالب» كرم الله وجهه وسب «فاطمة الزهراء» رضي الله عنها.

ضال ومضل:

ذهب الإمام جعفر واستمع له، ثم انقض مقاطعاً له وكشف للناس جهله ونفاقه، وأوضح للناس وهو يعظهم أن مثل هذا المنافق الذي يبيع شرفه وضميره بالمنصب أو بالجاه أو المال، ويبيع آخرته بدنياه، إنما هو ضال مضلل، وهو أبين الناس خسرانا يوم القيامة، وأن محض افتراءاته وكشف جهله واجب.

وعندما سقطت دولة بني أمية طالب الثوار «جعفر الصادق» أن يقبل البيعة ليصبح هو الخليفة، فرفض، فهو يحلق في سماء المعرفة ويضرب في أغوار العلم، ويشعر أنه أقوى من الملك.. وأنه باستمراره في دوره العلمي أنفع للناس. وكان يقول: «من طلب الرياسة هلك».

وتولى «أبو العباس» الخلافة وجاء عصر جديد يتطلع الناس فيه إلى الحرية والطهارة والعدل، فإذا بالمنافقين الذين زينوا الاستبداد لبعض الأمويين وشرعوا لهم العدوان والطغيان يحيطون بأبي العباس، وعندما ورثه المنصور، إذ بهؤلاء المنافقين يحيطون بالخليفة الثاني، وإذ بهم يوسوسون له بالآراء نفسها، وإذ بهم يوهمونه أنه فوق الحساب، حتى لقد جعلو المنصور يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه.

بل راح هؤلاء المرتزقة يدعون الناس إلى التقشف باسم الإسلام، ويحببون الفقر إلى الناس بلسم الدين ليصرف المستبدون إلى جمع المال، وينصرفون هم إلى الارتزاق.

لقد أرادوا من الأمة أن تواجه إسراف الصفة الحاكمة لا باستخلاص الحق المعلوم الذي شرعه الله بل بالزهد في كل شيء والانصراف عن الحق، ووضعوا الأحاديث النبوية التي لم تسلم من تزييفهم لخدمة الطبقة المالكة.

التفاف الأمة حوله :

ولأنه كان يتمتع بالصدق والصفاء في التعامل مع الحياة والناس والأشياء، لكل هذه السماحة والعذوبة والرقة والتسامح، ولإشراقه الروحي الرائع، وذكائه المتوقد الخارق، وبجسارته في الدفاع عن الحق، وقوته على الباطل، وبكل ما تمتع به من طهارة وسمو وخلق عظيم، التف الناس على اختلاف آرائهم حول الإمام «جعفر ابن محمد»، وكما كان حكام بنى أمية يراقبون التفاف الناس حوله بفزع، أخذ الخليفة العباسي... المنصور.. يراقب الإمام جعفرًا متوجساً من جيشان العواطف نحوه، وإعجاب الناس به.

أخذ المنصور يتربص بالإمام جعفر، وعرف أن الإمام يحارب الزهد. وكانت جماعات الزهاد تحبب إلى الناس الفقر، وتدعوهم إلى العزوف عن الدنيا، وإلى عدم التفكير في شؤونهم. وقد شجع حكام بني أمية هذه الجماعات ليصرفوا الناس عن

التفكير في المظالم، ويصرفوهم عن المقارنة بين غنى الحكام وفقر المحكومين. وجاء بنو العباس يشجعون هذا الاتجاه إلى الزهد، حتى لقد قويت الدعوة إلى الانصراف عن هموم الحياة.

محاربة الزهد:

ورأى الإمام جعفر أن هذه الدعوة تزيد الأغنياء غنى والفقراء فقراً، وأنها ليست من الله في شيء فهي تزين للفرد ألا يهتم بمصلحة الأمة، وألا يحاسب الحاكم، وتتيح للحكام أن يعطلوا الشورى، وهي أساس الحكم في الإسلام.

ومضى الإمام الصادق يناقش الزاهدين، فالزهد كما يفهمه الإمام الصادق هو الاكتفاء بالحلال، لا التجرد من الحلال.

ورأى المنصور في دعوة جعفر ضد الزهد والفقر تحريضاً لعامة المسلمين على أن يستمتعوا بحقوقهم في المال، ودعوة إلى إثارة التمرد، وكان استبداد المنصور قد استشرى، وكما فعل الحكام الأمويون من قبل، بطش المنصور بكل من يخالف رأيه ووجه بطشه إلى آل البيت، في هذه الظروف ظل الإمام جعفر يناضل بالكلمة دفاعا عن كل آرائه وعن حرية العقل والإرادة وشرف المثقفين، ثم أنه أخذ ينشر من فتاوى الإمام علي وأقضيته ما حرص الحكام والمستغلون علي إخفائه. فأفتى بأنه لا يحق للمسلم أن يدخر أكثر من قوت عام إذا كان في الأمة صاحب حاجة، إلى طعام أو مسكن أو كساء أو علاج أو دواء أو ما يركبه.

وأفتى بأن السارق إذا اضطر إلى السرقة، لأنه لا يعمل، فولي الأمر هو المسؤول وهو الآثم.. فإذا سرق السارق لأنه لا يحصل على الأجر الذي يكفيه هو وعياله، فالذى يستغله أولى بقطع اليد.

وجد المنصور في هذه الفتاوي تحريضاً عليه، واتهم «الإمام جعفر الصادق» بأنه يطمع في الخلافة، فقال له الصادق: «.. والله ما أنا طامع في ذلك ولقد كنت في ولاية بني أمية، وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا ولكم، وأنهم لا حق لهم في هذا

الأمر، فو الله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عني شيء مع جفائهم الذي كان لي، فكيف أصنع هذا الآن وأنت ابن عمي، وأرحم الخلق بي رحماً...»

أعلم الناس:

ومع ذلك حاول المنصور إحراج الإمام الصادق، فاستدعى أبا حنيفة النعمان وقال له: فُتن الناس «بجعفر بن محمد» فهيئ له من المسائل الشداد: ظناً منه أن أبا حنيفة أعلم منه. وبالفعل جاء الإمام الصادق وأبو حنيفة وجلس الناس، وأخذ أبو حنيفة يسأل الإمام في أربعين مسألة، والإمام يجيبه عن كل مسألة، فيقول فيها رأي فقهاء الحجاز، ورأي فقهاء العراق، ورأى فقهاء آل البيت، ورأيه هو. وما ملك أبو حنيفة إلا أن يقول: الإمام جعفر أعلم الناس، فهو أعلمهم باختلاف الفقهاء بل أنه صحب الإمام جعفرًا بعد ذلك سنتين يتلقى منه العلم.

كان الإمام جعفر مستمراً في دروسه يعلم الناس ويفتيهم ولا يأبه بالمنصور، في الوقت الذي حاول الأخير استمالته إليه. أرسل إليه الخليفة يوما يسأله: لم لا تخشانا كما يخشانا الناس؟ فكتب إليه الإمام جعفر: «ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنئك، ولا نراها نقمة فنعزيك».

فكتب إليه المنصور: تصحبنا لتنصحنا. فأجابه الإمام الصادق: من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك(*).

صدق الإمام:

ولم يرق هذا للمنصور، فاستدعاه واتهمه بأنه يجمع الزكاة، وجمع الزكاة حق للخليفة وحده، فهو إذن يدعو لنفسه، وشهد ضد الإمام شاهد زور فكذب الإمام أقوال الشاهد، فطلب المنصور من الإمام أن يحلف بالطلاق، ولكنه رفض فقد كان يفتي بأن الحلف بالطلاق لا يجوز وقال : إنه لا يحلف بغير الله فقال له الخليفة محتداً:

(*) سعد القاضي، «جعفر الصادق»، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١، ص٤١.

لا تتفقه عليَّ فقال الإمام هادئا مبتسماً: «وأين يذهب الفقه مني؟ ثم طلب الإمام من الشاهد أن يحلف على دعواه فحلف شاهد الزور».

وكان الخليفة قد اقتنع بأن الإمام صادق في قوله، فقد عرفه الجميع بالصدق ووقع شاهد الزور ميتاً، ومع ذلك فقد دعا (جعفر) للرجل بالرحمة.

وحطت ذبابة على وجه الخليفة لم يفلح في إبعادها، إذ كانت تعود فتستقر على وجهه..

فسأل: لماذا خلق الله الذباب؟ فقال الإمام جعفر الصادق.. ليذل به الجبابرة.

فقال له الخليفة متلطفا وجلا: سر من غدك إلى حرم جدك إن اخترت ذلك. وإن اخترت المقام عندنا لم نأل في إكرامك وبرك، فو الله لا قبلت قول أحد فيك بعدها أبدا.

وفضل الإمام العودة إلى المدينة المنورة وكان قد جاوز الخامسة والستين وظل بها يعلم الناس ويفقههم ويشرح للفقهاء كيف يستنبطون الأحكام عندما لا يجدون الحكم في الكتاب والسنة. وفي الثامنة والستين مات الإمام الصادق الذي رفض أن يكون خليفة.